الفَيْضُ بعدَ الغَيضِ

قال ابن المقفع[1]: (**شَرِبْتُ مِنَ الخُطَبِ رِيًّا، وَلَمْ أَضبطْ لَهَا رَوِيًّا، فَغاضَتْ ثُمَّ فَاضَتْ، فَلَا هِيَ هِيَ نِظَامًا، وَلَيسَتْ غَيرَهَا كَلَامًا**).

***

الغريب:

رِيًّا: الرِّي مصدر رَوِيَ يَروى رِيًّا فهو ريَّان.

رَوِيًّا: الرويُّ في الأصل هو الحرف الذي تُبْنى عليه القصيدة، ويُذكر أحيانًا تعبيرًا عن الحرف الأخير في فواصل الآيات والخُطَب، والمقصود أنه لم يتعاهَدْ ما حفِظه من الخُطَبِ.

غاضت: من غاضَ الماء إذا قلَّ وغابَ في الأرض، وهو عكس فاضَ، والمعنى غابت الخطب في نفسِ صاحبها.

فاضت: كثُرَتِ الخُطَبُ وسَالَتْ.

***

البيان:

هذه القطعة الأدبية عبارةٌ عن ألفاظٍ قليلةٍ المبنى تَتَضَمَّنُ حقائقَ غزيرةَ المعنى، فكلُّ من أرادَ الإبانة عن طريق لاحبٍ لتحصيلِ مَلَكَة الأدب وموهبة البيان، فإنَّه لن يجد أبلغَ من تجربةِ ابنِ المقفع الأدبية التي حكاها عن نفسه.

---

[1] هو عبدالله بن المقفَّع، أحد المشهورين بالكتابة والبلاغة والبراعة، كان فارسيًّا مجوسيًّا فأسلم. سُئِلَ: من أدَّبك؟ فقال: **نفسي، كنتُ إذا رأيتُ من غيري حسنًا أتيتُه، وإذا رأيت قبيحا أبيتُه**. قيل في ترجمته: كان ابن المقفَّع علمُه أكثر من عقله! وكان يتَّهم بالزندقة! وهو الذي عرَّب كتاب كليلة ودِمنة من الفارسية، يقال: إن ابن المقفع عاش ستًّا وثلاثين سنة فحسب. والمقفَّع: بفتح الفاء على الصحيح، قُتِلَ نحو سنة 145 هـ.

فابن المقفَّع شرِبَ مِن الخطب شُرْبًا حتى ارتوى من مَعينِها، فهذه هي البذرة التي أودعها في جوف تربتِه، ثم تركَها زمنًا تتسرب في أعماقِ نفسه وتَغيضُ في خَلَجات روحِه، فكانت الثمرة الطيبة عبارة عن إبداعٍ خالدٍ فاض عبر (**كليلة ودمنة**) و(**الأدب الصغير**) و(**الأدب الكبير**) وغيرها، فتؤكد هذه التجربة الأدبية أن الطريق إلى أفق الإبداع المبهرّ يمرُّ حتمًا عبر نفق التقليد الواعي، ومن المستقرّ في أذهان المجرِّبين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ أن من أرادَ الإبداع والتألق في أي مجال فعليه أن يشرب إبداعات الذي سبقوه.

والإشارة **لشرب** الخَطب إشارة بليغة، فالخطب لا تشرب وإنما تقرأ وتحفظ، ففيه معنى الهضم والضبط والإتقان والإحاطة.

والإشارة لنفي كونِها (**هي هي نظامًا**) مع الإقرار بكونِها (**ليست غيرها كلامًا**)، إشارة دقيقة إلى منابذته للتقليد فيما يقبل الحركة والتصرف، فالنظام فيه مجال واسع للحركة الإبداعية، وإن كانت المادة من الألفاظ والسياقات العربية واحدةً.

ومما يُحكى من التجارب المشابهة لتجربة ابن المقفع ما وَرَدَ أنَّ خالدَ بنَ عبد الله القَسْري قال: حفّظني أبي ألفَ خطبةٍ ثم قال لي: تناسَها فتناسَيْتُها فغاضَتْ ثم فاضَتْ، فواللهِ ما أردتُ بعد ذلك شيئًا من الكلامِ إلا سهُلَ عليّ وعْرُه، ولانَ لخاطري صعبُه.

وكذا ما جاء عن الشاعر أبي نواس، فقد ذكر عن نفسه تجربةً مقاربةً تُروى في كتب الأدب، فيقال بأنه استأذن أستاذَه الراوية خلفًا الأحمر في نظمِ الشعر، فقال: لا آذن لك حتى تحفظ كذا وكذا من أشعار العرب، فلمَّا أتمَّ حِفْظَها، قال له خلف: لا آذن لك حتى تنسى ما حفِظتَ كأنك لم تحفظه! والمقصودُ أن تغيض هذه المحفوظات ثم تفيض خَلْقًا آخرَ فتبارَكَ الله أحسن الخالقين!

وأصاب الدكتور عبدالوهاب المسيري في تجربته الفكرية كَبِدَ هذا المعنى حينما نَقَلَ عبارةً عن أحد المثقفين الكبار في عصرِه بأن (**النسيان وليس التذكر هو من يصنع المثقف!**)، فيقول المسيري محشِّيًا على هذه العِبارة: (**نسيان المعلومة وتذكُّر النَّمَط**)، فالمقصود من مراكمة الإبداع

السابق في ضِفاف النفس أن يوجد نسق كلّي يبعث قريحة المبدع، يدرك به مجال الحركة، ومدى سقف البراعة، ومسافة مضمار السباق، ويسوقه كلُّ ذلك إن كان لديه الاستعداد والقابليّة إلى السبق والتخطي والتجاوز.